

صدى قصة الخليقة القرآنية على مثنوي جلال الدين الرومي

نور محمد جمعة

أدرك مولانا جلال الدين الرومي⁽¹⁾ أن المعطيات القرآنية تهب شعره لوناً خاصاً من القداسة في نفوس الأمة ونوعاً من اللصوق بمشاعرهما ووجدانها، لما للقرآن الكريم من حضور حيٍّ ودائم في وجدان أفرادها، وهو يدرك تماماً مدى غنى القصص القرآنية وثرائها بالإمكانات الفنية والتعبيرية، وبالمعطيات والنماذج التي تستطيع أن تمنحه طاقات تعبيرية لا حدود لها، فهو يتوسل إلى الوصول إلى وجدان قارئه بطريق توظيفه لبعض هذه القصص التي تثير قيماً روحية وفكرية ووجدانية وعرفانية معينة فيه، وهو بذلك يعطي لشعره ولأفكاره نوعاً من الأصالة الفنية عن طريق إكسابها هذا البعد القرآني الديني، ويمنح أفكاره في نفس الوقت لونا من الكلية والشمول بحيث تتخطى حاجز الزمن في إطار من امتزاج الماضي والحاضر والمستقبل في وحدة شاملة.

ونلمح - في واقع الأمر - أن الرومي اتخذ القصص القرآنية أفنعة يبت من خلالها خواتمه وأفكاره ودروسه ومواعظه، واستطاع بفنية أحدث من سابقه أن يستغل تكنيك الحوار والمونولوج الداخلي والأسلوب القصصي وتعدد الشخصيات والحضور الدائم للقاص نفسه في أسلوبه القصصي الخاص. ونراه أحياناً يتخطى هذه المرحلة إلى القالب المسرحي بكل مقوماته، من تعدد الشخصيات، إلى تطور الحدث، إلى استخدام الحوار، وحتى تلك التوجيهات المسرحية التي يصور المؤلف من خلالها المنصة أو المنظر الذي تدور في إطاره الأحداث⁽²⁾.

1- هو: محمد بن محمد بن حسين بهاء الدين ولد في 6 ربيع الأول 604هـ الموافق 30 ديسمبر 1207م في مدينة بلخ، وهو

صاحب أشهر المثنويات الشعرية على الإطلاق؛ ديوانه مثنوي معنوي في ستة أجزاء، كما أنه يعدُّ أشهر شعراء التصوف

الفارسي. توفي في الخامس من جمادى الآخرة سنة 672هـ/ السابع عشر من ديسمبر 1273م في مدينة قونية بتركيا.

2- كما هو في قصة معاوية وإبليس، والتي سيأتي الحديث عنها.

وقد وجد الرومي في القصة القرآنية - بجانب ما قلناه - مرونة تحقق استقلال الشخصية القرآنية والتفسير الثابت لها ولما يقدمه الشاعر عنها في شيء من التكافؤ الفكري والمنهجي ووضوح التكوين الموضوعي في الأدب الصوفي الذي نسج - بطبيعته - رباطا قويا بينه وبين الموروث الديني كتراث حي متجدد ليزرع في قارئه يقينا راسخا بأصالته وعراقته. فالأدب الصوفي - ولا سيما عند الفرس - عرف منذ البدء أنه لن يستطيع أن يكتب لنفسه وجودا أو يحقق أصالة إلا إذا وقف على أرض صلبة بالموروث الديني والماضي العريق، وأنه إذا انقطع عن هذا الرافد الدفاق فسرعان ما يحكم عليه الزمن بالذبول ثم يوارى عليه التراب!

إن شخصيات الأنبياء عليهم السلام هي أكثر شخصيات التراث الديني طروقا للشعر الصوفي، ولا غرو فقد شعر المتصوفة من قديم بأن ثمة روابط وثيقة تجمع بين تجربتهم وتجربة الأنبياء، فكل منهم يحمل رسالة إلى أمته، ويتحمل العنت ويقاسي الشدائد في سبيل رسالته، وكل منهم يكون على صلة بقوى عليا غير منظورة، ولذلك فقد طاب لشعراء التصوف أن يشبهوا أنفسهم وطرقهم ومسالكهم بما عند الأنبياء، وقد وفقوا في أن يعثروا في ملامح شخصيات هؤلاء الأنبياء وفي سيرهم على ما يتلاءم والدلالة التي أوقعوها عليها، وكثير منهم نجح في اتخاذ شخصيات بعض الأنبياء أقنعة ليوحى من خلالها بأفكاره الخاصة، ولقد كان لتلك القصائد التي حملت شخصية نبي من الأنبياء دلالة عامة أكثر بكثير من تلك التي جرت على لسان الشاعر أو لعب الشاعر نفسه فيها دور البطل أو المحور .

ومن خلال تتبع القصص في المثنوي نرى بأن الرومي اتخذ عدة أساليب في استدعائه للقصص القرآنية؛ فراه أحيانا يسجل القصة ويعبر عنها في قالبها القرآني بنفس نبراتها وسماها الموروث لخدمة أهدافه - كما سنبيته -، وكثيراً ما يوظف القصة أو أحداثها أو شخصيات منها ويعطيها ملامح ونغمات جديدة، أي لا يدع الرومي نفسه تتحكم في مادة القصة الدينية فهو لا يربط نفسه بها قدر ارتباطه بها وراءها. أي بالأعماق والمعاني التي احتضنتها تلك المادة مهما كان موقف الرواية التاريخية منها!

وهذه وقفة مع قصة آدم التي تمثل محور الصراع بين الحق والباطل، والتي كانت لها صدى على ساحة الأدب العالمي، نوضح من خلالها موقع الرفع للمثنوي من الإعراب في عالم الأدب بشكل عام.
قصة الخليفة:

وردت حكاية بدء الخليفة في مواضع متفرقة من القرآن الكريم: البقرة: 30-39، وآل عمران: 59، والنساء: 1، والأعراف: 11-25، 189، والحجر: 26-44، والإسراء: 61-65، والكهف: 50، وطه: 55، 115-126، وص: 67-88، والحجرات: 13.

لقد أعلم الله تعالى الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة، فتساءلت الملائكة عن وجه الحكمة لهذا الكائن الجديد - وكان قد سبق لهم أن وجدوا الجن يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء - وهم يسبّحون الله ويقدّسونه، فبين الله لهم أن الإنسان سيكون منه الأنبياء والمرسلون والصدّيقون والشهداء والصالحون وأن الله يعلم ما تجهله الملائكة!

خلق الله تعالى آدم من طين - من صلصال من حمأ مسنون - وعلمه الأسماء كلها وأمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر وازدرى آدم وزعم أنه خير منه، إذ خلقه الله من طين في حين أنه خلق من نار! فحلت عليه لعنة الله إلى يوم الدين. لكن طبعه ومادته الخبيثة حرضته ليطلب من الله أن يُنظره إلى يوم يبعثون لينتقم من آدم وذريته!

أسكن الله آدم وزوجه الجنة وهيأ لها السعادة ورغد الحياة، إلا أنه منعها من الاقتراب من شجرة الامتحان أو الابتلاء، وبين لها أن الشيطان عدو لها ويسعى لإخراجها من الجنة.

استطاع الشيطان أن يصل إلى آدم وزوجه في ثوب الناصح الأمين فوسوس لهما أن الله لم ينههما عن أكل هذه الشجرة إلا أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين، وحلف لهما على ذلك ودلاهما بغرور، فذاقا تلك الشجرة، فبدت لهما سوءاتها وطفقا يخصفان عليها من ورق الجنة. فعاتبها ربهما على إصغائهما للشيطان! فتابا وأنابا إلى الله واعترفا بأنهما ظلما أنفسهما وأن رجاءهما الوحيد هو مغفرة من الله ورضوانه، وأنه لو لم يرحمهما سيكونان من الخاسرين لا محالة!

ثم تاب الله على آدم وأخرجه من الجنة وجعل له في الأرض مستقراً إلى حين. وترك لذريته الحرية، فمن تبع الهدى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومن كفر منهم وكذب بآيات الله فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون(3).

إن أهم مشهد من مشاهد هذه الحكاية التي أثارت اهتمام الفلاسفة - علماء الكلام(4) - والأدباء والمتصوفة على وجه الخصوص هو مشهد تمرد إبليس. وقد ذكر القرآن اسمه مقرونا بقصة الخلق في تسعة

3- انظر: إسماعيل بن كثير الدمشقي، قصص الأنبياء، مؤسسة الريان، بيروت، ط1، 1420هـ، ص 7-25.

4- قصة الشيطان هي من أهم النقاط التي ساهمت في مباحث علم الكلام وقد دارت أفكار أصحاب الكلام عن إبليس في عدة محاور منها: (1) لماذا خلقه الله عز وجل وهو كان يعلم أنه سيعصيه ويتمرد على حكمه؟ (2) السجدة مظهر من مظاهر الكمال والألوهية فلم أمرت الملائكة بالسجود لآدم؟ (3) هل إبليس من الجن أم من الملائكة؟ (4) هل يقدر إبليس أن يتسلط على قلوب العباد؟ (5) وهل تفوق إرادة إبليس الإرادة الربانية؟ انظر: عبد الكريم سروش، قمار عاشقانه شمس ومولانا، مؤسسه فرهنگي صراط، تهران، ط 2، 1379 ش، ص 275.

مواضع: البقرة: 34، والأعراف: 11، وحجر: 31-32، الإسراء: 61، الكهف: 50، طه: 116، وص: 74-75⁽⁵⁾ وأكثرها تفصيلاً تلك الآيات التي وردت في الأعراف: 10-17.

أما الصوفية فحاولوا من خلال الآيات والأحاديث الواردة أن يستخرجوا بعض المفاهيم العرفانية ويطرحوا بعض العبر من هذه القصة، ورأوا في إبليس رمزاً لكل المعاني القبيحة كالغضب والحقد والحسد وحب الجاه والشهوة، وعبروا عنها في آثارهم مثل: قوت القلوب لأبي طالب المكي، وكشف المحجوب للهجويري، وإحياء علوم الدين للغزالي، وتذكرة الأولياء والمثنويات لعطار، والمثنوي للرومي، وكذلك تجدها في كتب سير الأولياء وقصص الأنبياء أمثال: حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني، وطرائس المجالس للثعلبي، وقصص الأنبياء لابن كثير، وروض الرياحين في حكايات الصالحين ليافعي وغيرها من الكتب.

ساهمت هذه الكتب في إثراء الأدب ببعض القصص التي ذكرتها، مثل قصة الزاهد الذي أراد قطع شجرة الضلال، لكنه وقع في شرك إبليس⁽⁶⁾، أو قصة معاوية وإبليس في المثنوي.

وقد رحب الأدب الفارسي ببعض القصص والروايات الإسرائيلية مثل: سطو الشيطان (العدو - الجن) على خاتم سليمان، ودخوله الجنة بمساعدة من الطاووس والحية. ومحور الشعر العربي يدور على أسطورة شيطان الشعر، وقد صورتها المقاومة الإبليسية لبديع الزمان الهمداني (358 - 398هـ)⁽⁷⁾، والتي استوحيت رحلة التوابع والزوابع لابن شهيد فكرتها منها وابتكرت شيطانا خاصا بالمؤلف لينقله إلى أودية الجن. وتطورت الفكرة مع رسالة الغفران للمعري في رحلته إلى جنة الغفران والجحيم. وتوارثت الأجيال هذه الفكرة إلى يومنا هذا، ومن أشهر الأعمال المعاصرة التي تتماشى معها، مطولة عبقر لشفيق المعلوف (ت 1905م) التي أبعدت الشاعر عن عالم الواقع وحملته إلى عالم الجن والشياطين في وادي عبقر، والقصة

5- ولم يرد اسم إبليس بدون قصة الخليفة إلا في سور: الشعراء: 26 و95، وسبأ: 34 و20، وأحياناً ذكر باسم الشيطان؛ البقرة: 36، والأعراف: 20، وطه: 120. والشيطان عرف في المعاجم بأنه كل عاتٍ متمرّد من الجن والإنس والدواب. والراجع في أصل الكلمة أنها مستعارة من اللغة الأثيوبية وهي بدورها اشتقتها من اللغة العبرية. وكان يعرف إبليس باسم عزازيل أو الحارث قبل ذلك. انظر: أحمد الشتاوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس، دائرة المعارف الإسلامية، دار الفكر: 14/46-57.

6- محمد بن علي المكي، قوت القلوب في معاملة المحجوب، مصر، 1961م، 2/333-334.

7- محمد محيي الدين عبد الحميد، شرح مقامات بديع الزمان، ط 2، ص 253-277.

الشعرية في حانة إبليس لمحمد الفراتي (1890-1978م) في ديوانه النفحات⁽⁸⁾، وقصيدة ترجمة الشيطان لعباس محمود العقاد (1889-1964م)⁽⁹⁾.

ومما يلفت النظر في الدرس الصوفي تلك الروايات التي تنسب إلى كبار المتصوفة في العصور الإسلامية الأولى مثل: الحسن البصري: إن نور إبليس من نار العزة - وإذا يظهر نوره للخلائق يقعون له ساجدين⁽¹⁰⁾، وذوالنون المصري يعجبه إخلاص إبليس في طاعته وعبوديته لله⁽¹¹⁾، وبايزيد البسطامي يشفق عليه ويستغفر له⁽¹²⁾، والجنيد البغدادي ينهر باستدلالة في عدم السجود لغير الله⁽¹³⁾، وأبو بكر الواسطي ينصح باتباعه⁽¹⁴⁾، والسهل التستري يستغرب من علمه في التوحيد⁽¹⁵⁾، والشبلي في مرض موته يغبط إبليس في الإضافة في "لعنتي"⁽¹⁶⁾، وأبو القاسم الكركاني يعتبره سيد السادة وفخر المهجورين⁽¹⁷⁾(18)، وأحمد الغزالي يراه سلطان الموحدين، وعين القضاة ينذر حياته في الدفاع عن عشقه⁽¹⁹⁾.

-
- 8- محمد الصالح السليمان، الرحلات الخيالية في الشعر العربي الحديث، من منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2000م.
 - 9- وظل الشيطان موضوعاً لكتب ألفت حوله في القديم والحديث، فمن أهم الكتب السابقة: ابن الجوزي، تلبس إبليس، وابن القيم، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، وابن مفلح، مصائب الإنسان من مكائد الشيطان. ومن أهم الكتب الحديثة: محمد خير وانلي، مدرسة الشيطان، وطه عبد الله العفيفي، من مكائد الشيطان، وعباس محمود العقاد، إبليس. انظر: محمد الصباغ، التصوير الفني في الحديث النبوي، المكتب الإسلامي، ط 1، 1409هـ/ 1988م، ص 231.
 - 10- عبد الله عين القضاة الهمداني، تمهيدات، حققه: عفيف عسيران، تهران، 1341ش/ 1382هـ، ص 211.
 - 11- ميدي، كشف الأسرار وعدة الأبرار، حققه: علي أصغر حكمت، تهران، 1352ش/ 1393هـ: 1/ 160.
 - 12- فريد الدين العطار، تذكرة الأولياء، حققه: نيكلسون، ليدن، 1905م، 1/ 158.
 - 13- فريد الدين العطار، منطق الطير، حققه: صادق گوهرين، تهران، 1365ش/ 1406هـ، ص 183.
 - 14- فريد الدين العطار، تذكرة الأولياء، 2/ 271-272.
 - 15- المصدر السابق، 1/ 258.
 - 16- فريد الدين العطار، منطق الطير، ص 183، تذكرة، 2/ 180.
 - 17- عبد الله عين القضاة الهمداني، نامه ها الرسائل، تهران، 1362ش/ 1403هـ، 1/ 97.
 - 18- انظر: دائرة المعارف بزرگ اسلامی، إشراف: كاظم موسوي بجنوردي، تهران، 1368ش/ 1410هـ 2/ 592-605. درست هذه الموسوعة العلمية "إبليس" من خلال أربع مقالات علمية: الإبلis في اللغة والأدب، وفي القرآن، وفي علم الكلام، وفي الأدب الفارسي والعرفان.
 - 19- عبد الكريم سروش، قمار عاشقان، ص 273.

فما نراه في العصور المتأخرة عند أحمد الغزالي وعين القضاة والمبيدي والسنائي والطار والمولوي وروزبهاء بقلي في تبجيل إبليس والسعي لتبرير ضلالاته ليس إلا تكراراً وتأكيذاً أو بسطاً وتفصيلاً أو شرحاً وتفسيراً لما سبق، ولما ورد عن الحلاج الذي بالغ في الأمر ورأى في إبليس وفرعون أسوة له في الثبات على الرأي، فهذا هدد بالنار وثبت وذاك أغرق في البحر وثبت⁽²⁰⁾، إلا أن المولوي كان أكثرهم ذكاءً إذ أجرى كل تلك الآراء الفلسفية والشطحات الصوفية في الدفاع عن الشيطان على لسان إبليس في نقاشه لمعاوية، فأخرج نفسه من سهام الاتهام وظهر وكأنه لا يؤمن بتلك الأفكار، بل ويناقشها ويصححها على لسان معاوية وإن بدا دفاعه ضعيفاً كما سيأتي!

لست هنا بصدد البحث عن استدعاء الرومي لشخصية إبليس في ديوانه وإنما أتطرق فقط لصدى قصة الخليفة في القرآن وما شابهها في الأحاديث والروايات الإسرائيلية لدى المفسرين في المثنوي، ثم أقف مع قصة "معاوية وإبليس" التي بها فكرة الخليفة من وجهة علماء الكلام والمتصوفة واستدعاءات قصة الخليفة في القرآن الكريم، وأشير إلى صداها عند بعض الأدباء الآخرين.

1- يذكر الرومي في الكتاب الخامس أن الله عز وجل أمر جبريل أن يأخذ قبضة من تراب الأرض من جوانبها الأربعة من أسودها وأبيضها وأحمرها وأطيبها وأخبثها ليصنع منها آدم. لكن الأرض انكشفت على نفسها خائفة من التكاليف والمخاطر وبدأت تتضرع وتحلف جبريل بالأيمان الغليظة ليركها. استحيا جبريل من اسم الله الأعظم وكره أن يأخذ منها شيئاً فرجع خالي اليدين! أرسل الله ميكائيل لأداء المهمة، فقالت الأرض له ما قالت لجبريل وأخذت بالنياح والبكاء والتضرع وحلفته بحق الإله اللطيف الذي لا نذ له أن يتركها لحال سبيلها ولا يجعلها تتحمل أعباء المسؤولية وإن كانت تعرف كثرة منافع القرب إلى السلطان لكنها كانت تخشى الخطر العظيم الذي يترصد له خلف جدران المعصية! عاد ميكائيل إلى الحق سبحانه وتعالى خاوي اليدين!

ثم أرسل الله إسرافيل ليأتي بحفنة من تراب الأرض، فجاء إسرافيل لأداء الواجب لكن الأرض كعادتها أخذت في التوسل وذكرت مناقب هذا الملك ومقامه - كما فعلت بمن سبقه - ليفعل هو أيضاً ما فعله ويتركها وحالها. فكان لها ذلك...

فأرسل الله عزرائيل، ملك الحزم والعزم، لينظر في أمر هذه الأرض، صاحبة الخيال والأوهام، فيحضر منها قبضة من التراب. بدأ التراب على عادته في الصراخ وأقسم عليه وأغلظ في الأيمان، لكن

عزرائيل لم يتأثر بتأويلات الأرض وقياساتها، فقال لها: إن قلبي ليشفق من ضراعتك، ومن دمعتك امتلاً صدري دماً وإنني أكثر رحمة من أصحابي الذين سبقوني لكنني لا أجرؤ على مخالفة أمر الله عز وجل أو الاستهانة به. فبدأ التراب يبالغ في البكاء والتضرع والسجود والتهايل كالسكران⁽²¹⁾ ويقول: "أعوذ بعزة الله الذي أرسلك ألا تقبض مني اليوم قبضة يكون للنار فيها نصيب غداً، فقال ملك الموت: وأنا أعوذ بعزته ألا أعصي له أمراً، فقبض قبضة من وجه الأرض مقدار أربعين ذراعاً من زواياها الأربعة"⁽²²⁾.

تحاول أحداث القصة أن تصور بأن الأرض نفسها لم تكن تريد أن يخلق منها الإنسان لثلاث عيبي، فيؤخذ بمعصيته ويمضي إلى النار، فضلاً عن تعرضه لبلايا العيش في الدنيا⁽²³⁾.

2- يستدعي الرومي قصة آدم عليه السلام على لسان الهدهد في قصة سيدنا سليمان عليه السلام وقد أخذ عليه الغراب كيف أنه يزعم الحصول إلى ما لا يعرفه الملك وأنه يرى الماء تحت الأرض، لكنه يقع في شبكة الصياد! فردّ الهدهد: إذا جاء القدر عمي البصر، واستشهد بقصة آدم أبي البشر⁽²⁴⁾ والسيد المشرف بـ "علم الأسماء" على حقيقتها، وأنه لما جاءه القضاء أغمض بصره عن مراعاة صريح النهي عن أكل الشجرة وأن الشيطان له عدو، فرأى الظاهر وغفل عن الحقيقة! فاسم أي شيء بالنسبة لنا هو ما يدل عليه ظاهره، أما بالنسبة لله عز وجل فله سر وباطن، فهذا الذي كان موسى يسميه بالعصا كان عند الله حية تسعى. وأنا إذا كنت لا أرى الشبكة ليتحقق قضاء الله عز وجل لست بالجاهل الوحيد أمام القدر المتحتم⁽²⁵⁾.

3- في سياق الحديث عن القياس الخاطئ⁽²⁶⁾ وأنه لا قياس مع النص الصريح يستشهد المثوي بمشهد تمرد إبليس في القصة القرآنية مع أول قياس في تاريخ الخليفة حيث زعم بأن النار أفضل من الطين وأن النور هو الذي يورث الرفعة والسمو دون الظلمة.

21- جلال الدين الرومي، مثنوي معنوي، باهتمام نيكلسون، نشر ثالث، طهران، ط 4، 5/ 1556-1684.

22- بديع الزمان فروزانفر، مأخذ قصص وتمثيلات مثنوي، طهران، 1373 هـ، ص 170-171، ومثنوي مولانا جلال الدين الرومي، ترجمه وشرحه وقدمه: إبراهيم الدسوقي شتا، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، 1416 هـ، ص 498.

23- مثنوي الدسوقي شتا، ص 498.

24- مثنوي، طبعة نيكلسون، 1/ 1234.

25- المصدر السابق، 1/ 1256.

26- المصدر السابق، 1/ 3396.

يبقى المولوي يكيل الكيل كيلين بإسقاطاته القرآنية، فابن نوح لم يرث أباه وأصبح من الضالين، ومن قصص السيرة، وقد صار ابن أبي جهل مؤمناً عياناً. وابن التراب هذا سما وصار كالقمر في السماء بنور العلم والتقوى والطاعة، وأنت يا ابن النار - إبليس - اذهب مسود الوجه - بسواد الكفر -.

4- في معرض الحديث عن غرور التقوى الذي يجعل التقى يطعن في الأشرار، وينظر إليهم بعين الاحتقار يورد المثنوي حكاية رمزية مفادها: أن آدم أعجب بنفسه إذ أطاع ربه ونظر إلى إبليس بعين الاستصغار والهوان، وأخذ يضحك ويسخر منه ويحاسبه على زلته. فصاحت غيرة الحق في وجهه تبين له بأن الهداية بيد الله وهو قادر أن يجعل الأبالسة يتوبون فيدخلون الجنة وبني آدم يضلون فيدخلون النار.

وسرعان ما يدرك آدم مغزى التهديد الإلهي ويعود إلى رشده ويتوب عن خطئه ويسأل الله ألا يزيغ قلبه بعد إذ هداه ولا ينزله من مقام القرب. فكل شيء ما خلا الله باطل... إن فضل الله غيم هاطل (27).

5- قوله تعالى في حق إبليس إنه: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ فَفَسَقَ﴾ (28): يبحث الرومي عن علة يفسر بها عصيان إبليس لمولاه، هل هو من أصله، كونه من مارج من نار (29) - فالولد سر أبيه - أم أن الأمر كله لا يعدو إلا أن يكون قهراً وغضباً من الله عز وجل وليس مرجعه أصل خلقته من النار؟ فمن الجن من آمن واتبع الرسول.. وإنما سقط إبليس في شبكة الجاه.

استدعى الرومي هذه المفردة من القصة ليوظفها في تحريض السالك إلى عدم الالتفات إلى العلل التي هي عرضة للتغيير والتبديل، فكلنا مخلوقات لله وهو قادر أن يخلق الإنسان من غير أب - كعيسى عليه السلام - أو من غير أب وأم - كآدم عليه السلام - فهذا هو الأصل وما عداه قشور والعشق هو رفيق الدرب إلى الوصول، "فكن أيها الأخ كالموضع الذي لم يغرس فيه شيء، وكالورقة البيضاء التي لم يكتب عليها شيء" (30).

27- المصدر السابق، 1/ 3923.

28- المصدر السابق، 5/ 1927، والآية ﴿.. فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ الكهف: 50.

29- ﴿وَوَخَّلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾ الرحمن: 15.

30- مشوي، طبعة نيكلسون، 5/ 1964.

6- الشيطان يوقظ معاوية لصلاة الفجر⁽³¹⁾: أشار الرومي في مطلع القصة أنها جاءت في الروايات ليعطي لها طابعا تاريخيا وواقعيا، وبذلك يوثق ما يسردها ضمن أحداث قصته⁽³²⁾ التي تذكر أن معاوية في منتصف الليل، بعد أن تعب من زيارات الناس، أغلق الأبواب ونام في زاوية من زوايا قصره⁽³³⁾، وفجأة أيقظه رجل لصلاة الفجر، وما أن فتح عينيه حتى اختفى الرجل، فاستغرب من وجود شخص في الغرفة المغلقة وأخذ يبحث عنه، فرأى شقياً يختفي وراء الستار. فصرخ فيه: من أنت؟ فعرفه الرجل بنفسه بأنه إبليس الشقي. فاستغرب معاوية عن سبب إيقاظه له لصلاة الفجر، وهو الشيطان اللعين الأمر بالمنكر والناهي عن المعروف!

31- المصدر السابق، 2/ 2604. يرجع فروزانفر أصل الحكاية إلى قصص الأنبياء للثعلبي، ص 36؛ يروي أن رجلاً كان يلعن إبليس كل يوم ألف مرة، فبينما هو ذات يوم نائم إذ أتاه شخص فأيقظه وقال: قم فإن الجدار ها هو يسقط، فقال له: من أنت الذي أشفقت علي هذه الشفقة. فقال له: أنا إبليس. فقال: كيف هذا؟ وأنا ألعنك كل يوم ألف مرة! فقال: هذا لما علمت من محل الشهداء عند الله تعالى، فخشيت أن تكون منهم فتنال معهم ما ينالون. ولها ما يشبهها في البيان والتبيين للجاحظ: 3/ 101، وذكر ابن الجوزي في تلبس إبليس، ص 138: دخل أبو حازم مسجد دمشق فوسوس إليه الشيطان أنك قد أحدثت بعد وضوءك، وقال له: أو قد بلغ هذا من نصحك؟.. انظر: بديع الزمان فروزانفر، أحاديث وقصص مثوي، الإعداد والترتيب: حسين داودي، مؤسسة أمير كبير للنشر، تهران 1376 ش/ 1418 هـ، ص 221، وعبد الكريم سروش، قهار عاشقان، ص/ 259-326.

32- لكن في الحقيقة لم يصل الباحثون إلى أي أصل للقصة وفي أي كتاب، وإن كانت في المصادر الصوفية بعض الحوارات مع إبليس إلا أن أيا منها لم يذكر حوارا ونقاشا دار بين معاوية وإبليس. انظر: عبد الكريم سروش، قهار عاشقانة، ص 261. فهذا من بنات الأفكار الفنية لمولانا، ولعله استعار صوت إبليس ليتخذ بوقا يسوق من خلاله بعض آراء المتصوفة أو علماء الكلام دون أن يتحمل وزرها!

33- مثوي، طبعة نيكلسون، 2/ 2604. ومطلع القصيدة: جاء في الخبر أن معاوية - وفي هامش نسخة القونية: خال المؤمنين - كان نائما في إحدى زوايا قصره... حرف صاحب جواهر الآثار الشيعي المطلاع بترجمته: في الحديث جاء خال المؤمنين... من هو الكافر حقا واليقين - ليلة في قصره حتى السحر... نام من بعد عشاء وسهر... وبرر لنفسه هذا التحريف بقوله: أن الشيعة الإمامية الاثنى عشرية تلعن معاوية لأنه من محاربي أمير المؤمنين علي (ع). واتفقت الإمامية والزيدية والخوارج على أن الناكثين والقاسطين من أهل البصرة والشام أجمعين كفار ملعونون كما قرره الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان من أكابر علماء الإمامية في القرن الرابع للهجرة في رسالته في الفرق ما بين الفرق، وزعم المؤلف أن ذكر الرومي لمعاوية في كتابه لا يعرب عن حسن اعتقاده فيه بل من مقارنته له بإبليس يعلم عكسه! انظر: محمد بن جلال الدين البلخي الرومي، جواهر الآثار في ترجمة خداندگار، ترجمه إلى العربية عبدالعزيز صاحب الجواهر، الدفتر الثاني، انتشارات دانشگاه تهران، ص 546-547.

علل إبليس بأنه كان من الملائكة ولم تنزل فيه بعض آثار الصلاح، ومن هنا يبدأ الحوار والنقاش بين معاوية الذي يظهر هنا كشخصية ثابتة الإيمان، متضرعة إلى الرحمن، به مسحة روحانية، وعنده معرفة بخداع النفس مما دفع الشراح الشيعة إلى الاعتراض (!)⁽³⁴⁾، وإبليس شخصية ملهمة بالآراء والأدلة الفلسفية.

ومن خلال هذا الحوار يشير المولوي إلى كثير من رؤى الصوفية - وقد سبق أن أشرنا إليها - تجاه إبليس، ويناقش بعضها منها. وهو يصور إبليس على أنه لا يزال يطمح في رحمة الله، إذ القهر حادث والرحمة قديمة، وأنى للحادث أن يتغلب على القديم، وقد سبقت رحمة الله غضبه!..

ويسمح لإبليس أن يفتخر بعدم سجوده لغير الله غيرة منه على الله سبحانه وتعالى من أن يسجد لغيره! وأن الغيرة شرط من شروط المحبة.

ويفسح له المجال أن يتوسل بحيلة جبرية ويزعم بأن الله طلب منه أن يدخل حلبة المباراة مع آدم وكتب عليه أن يُهزَم لي لعب دور الإضلال، ومن ثم كان هذا العصيان طاعة لأمر الرحمن وهو يفتخر به ويتلذذ منه، فالعصيان والطاعة من الله عز وجل! فيردّ عليه معاوية أن هذا الدور ليس إلا فساداً وفسوقاً وكفراً وإضلالاً. ويستدعي قصصاً من القرآن الكريم لعب فيها إبليس دوراً رخيصاً فأضلّ أمماً وأبادهم كقوم نوح⁽³⁵⁾ وقوم عاد⁽³⁶⁾ وقوم لوط⁽³⁷⁾ والنمرود الذي أعلن الحرب على الله عز وجل وفرعون وأبي لهب وأبي الحكم الذي حوّله الشيطان إلى أبي جهل.

يدافع إبليس عن نفسه ويرى أن هؤلاء هم الذين ظلموا أنفسهم وهو ليس إلا محكاً جعله الله للفرق بين الزائف والصحيح، ولا شأن له في الوسوسة والإيقاع في الشر، فلو كان الأمر كذلك لكان هو المنتصر على طول الخط ولما بقي أثر للخير والصلاح. ويرجع سبب الضلال إلى الإنسان نفسه أما هو فلا يأمر ولا ينهى وإنما يعرض الشر فقط، فيرغب فيه الناس بطبائعهم وميولهم، والعالم لا يقوم بالخير وحده وإنما بالخير والشر والجمال والقبح. ويعرف نفسه بأنه مجرد مرآة يرى كل إنسان صورته فيها.

النبرة الاستدلالية تقوى مع إبليس وتضعف مع معاوية! مما يجعل معاوية يشكو إبليس إلى الله عز وجل ويطلب منه النصر. ويلح على إبليس أن يصدقه القول في سبب إيقاظه للصلاة، وهو عدو لليقظة

34- مثنوي الدسوقي شتا، ص 446.

35- سورة الأعراف، الآية: 64.

36- سورة الحاقة، الآية: 6.

37- سورة النمل، الآية: 58، وسورة هود، الآية: 82.

يجلب النوم للجميع كالخشخاش ويسلب العقل والمعرفة كالخمر! فلا يستطيع معاوية أن يصدق أن الشيطان - وهو عدو له - يوقظه من أجل الخير!

وبعد أن كادت العقدة القصصية تضع في مكر إبليس ودهائه وتأويلاته جاء الحل مع اعتراضه لمعاوية بمكره: فلو فاتتك الصلاة يا أمير العطاء، لأطلقت من حسرة القلب التأوه والأنين، ولتجاوز هذا التأسف والأسى مائتي ركعة من فرض الصلاة، أيقظتك من خوف، حتى لا يحرق هذا التأوه الحجاب، وحتى لا تسعد بمثل هذه الآه ولا تجد الطريق بها⁽³⁸⁾...

"الضرورة الإبليسية أو ضرورة وجود إبليس تعدّ بابا من أبواب الأدب العالمي الحديث، ولعل مولانا بأبياته هذه كان أول من أثار هذه النقطة على نطاق واسع"⁽³⁹⁾. ومن أشهر من طرقة في الأدب الغربي رائد الرومانتيكيين الأول في هذا الباب جون ملتن (John Milton)⁽⁴⁰⁾ "بقصيدتيه الكبرواين: الفردوس المفقود"⁽⁴¹⁾ و الفردوس المردود، أما الأولى فتقص ثورة الملائكة على الله ثم كيف تم خلق

38 - لعله يجدر الإشارة إلى أن نبرة الحديث عند مولانا عن إبليس تختلف عما هي عند الحلاج أو السنائي والطارق؛ كلما تقمص الرومي ثوب أهل التشريع أخذ يذم إبليس، وكلما نظر إليه من منظار أهل التصوف اعتبره كالسنائي والطارق عاشقا غيورا إلا أنه لا يبالغ مثلها!، فمن أمثلة نظراته الصوفية لإبليس ما ورد في المتنوي: 1/ 3993-3998، 2/ 2617-2634، 2/ 2640-2644، 2/ 2645-2651، 2/ 2654-2656، 2/ 2672-2699، 2/ 2718-2729، 5/ 1925، (أشار فيها إلى سابقته وأن طرده من رحمة الله موقت، لم يسجد غيرة على الله، يقوم بدور العصيان طاعة لله، وسيلة لامتحان العبيد، اعتراضه على الضالين، معنى اللعنة، يذم الله كبرياء آدم ولا يرضى أن يحقر إبليس!، وهو رمز لفتح الله عز وجل). ومن أمثلة نظراته الشرعية ما ورد في المتنوي: 1/ 3297-3396، 2/ 128-132، 2/ 2512-2517، 2/ 2658، 2671، 3/ 2849-2861، 3/ 3198، 3/ 4053-4326، 3/ 4344-4636، 4/ 1785-1780، 4/ 2674-2678، 5/ 62-60، 5/ 166-150، 5/ 526-525، 5/ 772-767، 5/ 1528-1527، 5/ 1957-1955، 6/ 155-156، 6/ 260-259، 6/ 477-476، 6/ 999-993، 6/ 3623-3610، (شيطان خادع مكار، يجب محاربتة، وصف مكره، لا سبيل له إلى الإنسان الكامل، الحسد من دروسه، لم يكن يعشق الدين، هو رأس فكرة القياس مع الفارق، يطلب طول العمر، رأس الفساد الأخلاقي، رمز العصيان، النفس هي الشيطان، المفهوم اللغوي للشيطان، ماذا يعني لعنه). انظر: كريم زماني، ميناغر عشق (شرح موضوعي متنوي معنوي مولانا).

39 - متنوي الدسوقي شتا، ص 448.

40 - جون ملتن (John Milton)، 1608-1674 م.

41 - تقع الفردوس المفقود في اثني عشر جزءاً. يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات؛ فتورة الملائكة وكفاحهم ضد الإله يشغل الجزء الأول والثاني والثالث كما يشغل الشطر الأعظم من الجزءين الخامس والسادس. خلق الإنسان وشفاعة المسيح له ويرد ذكرها في الجزءين الأول والرابع، ثم يشغل جانباً من الخامس والسادس والثامن. وإيقاع الشيطان بالإنسان ثم عصيان آدم وحواء وطردهما من الجنة هو موضوع الأجزاء الباقية من التاسع إلى الثاني عشر.

الإنسان وإغراؤه وسقوطه طريدا من الفردوس⁽⁴²⁾. وقد مال ملتن إلى الشيطان وجعله بطل قصته حيث استطاع أن يُخرج آدم وحواء من الجنة ويتخذ "الخطيئة" و"الموت" معينا له على الأرض؛ "وتاب آدم وحواء فاستجاب لهما الله، وأرسل إليهما ميكائيل ليعلم أن الموت لن يقع عليهما حتى يكملا التوبة، أما الفردوس فلن يعود لهما مقرا، فأخذت حواء تنظر إلى الفردوس بعين باكية واستسلم آدم لعبراته وأن أوان الخروج، فهبط آدم وحواء إلى الأرض وأخذوا يضربان في أرجائها يدا في يد، يسيران بخطو وئيد..."⁽⁴³⁾.

"ولقد اقتضى الفن الملحمي في تصوير هذه القصة أن يُظهر الشاعر الشيطان في صورة البطل العنيف، أو على الأقل في صورة المحارب القوي. وقد اضطر إلى ذلك، لأن الملحمة لا تقوم بدون حرب وصراع بطولي. لا بد أن يكون عدو الله والإنسان عنيفا قويا. فلو أن الشاعر اكتفى بخذلان الشيطان بفضل جبروت الله، خلت الملحمة من الصراع وانتهت وقائعها في أبيات قلائل. ولقد جر عليه هذا الخيال لبطولة الشيطان نقدا كثيرا، فذهب بعض النقاد إلى أن بطل الملحمة الحقيقي هو الشيطان وليس الإنسان"⁽⁴⁴⁾.

وأما القصيدة الثانية فتصف كيف حاول الشيطان أن يغري المسيح وهو في البيداء المقفرة بثتى المغريات، لكنه لم يوفق في إغرائه وخرج المسيح ظافراً. وكأن ملتون أراد أن يكفر عن خطئه في الفردوس المفقود، فجعل ينقص من جبروت الشيطان شيئاً فشيئاً حتى تضائل وهزل وأصبح "الإنسان" لا "الشيطان" هو بطل الملحمة، فجاءت الفردوس المردود وانتصر فيها الإنسان الإلهي على مغريات الشيطان نصراً حاسماً، بيد أن الملحمة الثانية لم تحظ بشهرة الملحمة الأولى!⁽⁴⁵⁾

ومن هنا اتضح سمات "الشيطان" في أدب الرومانتيكيين في صورة المتمرّد الذي طرد قهرا من عالم الخير، فدفعه اليأس إلى الإدمان على الشر، وأصبح الرومانتيكيون يعبرون على لسان الشيطان عن آرائهم فيما يعترهم من قلق وشك وبؤس وضيق بالخلقية، فعند "ألفريد دي فيني" في قطعته الشعرية "إلوا أو أخت الملائكة"، لم تبق للشيطان قدرة الشعور بالشر أو صنع الخيرات، بل إنه لا يجد متعة فيما يفعل من صفوف الشقاء! وفي الأدب الرومانتيكي الروسي تراءت سمات هذه الشخصية عند "ليرمونتوف" (1814 - 1841م) في قصيدته الدرامية ذات الطابع الغنائي "الشيطان"، وهو في تصويره للشيطان متأثر

42 - أحمد أمين وزكي نجيب محمود، قصة الأدب في العالم، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1364هـ/ 1945م، 249/2.

43 - من قصيدة الفردوس المفقود، قصة الأدب في العالم، 2/ 262.

44 - محمد عبد السلام كفاي، في الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1، 1972م، ص 211-212.

45 - انظر: أحمد أمين وزكي نجيب، قصة الأدب في العالم، 2/ 238-262.

بمسرحية "قابيل" للشاعر الإنجليزي بيرون (Byron) الذي جعله يستمع إلى وساوس قابيل، ويظل بدون أمل وحب ينثر بذور الشر في العالم دون أن يجد في ذلك لذة أو متعة. وعند فكتور هوجو (Victor Hugo) في مسرحية "نهاية الشيطان" ينتصر الإنسان في الصراع بين الخير والشر الذي صنعه الشيطان⁽⁴⁶⁾.
ويتجلى تأثير الرومانتيكيين العام في حديثهم عن الشيطان وتصويره بالسماة التي ذكرناها في قصيدة ترجمة شيطان⁽⁴⁷⁾ لعباس محمود العقاد الذي جعل شيطانه يكفر بالشر ويندم فيجازيه الله عن توبته بالجنة مسكنا ومأبأ لكنه يحاول في الجنة أن يغري الملائكة ويكاد يخرجهم عن عصمتهم!، لكن روح الثورة لا تفارق هذا المخلوق فيرى أن أي منزلة دون الكمال الإلهي نقص وعيب فيطلب إلى الله في تحد صارخ أحد أمرين: إما الخلود الإلهي المطلق، وإما التحول حجراً صلداً تخلد فيه روعة الفن الجميل، "سواء لدي أ عفوت عني أم لم تعف، فلا تأمل مني توبة، وليسجد لك من شاء لكنني لست لك بساجد؛ فاجعل مني حجراً صلداً إذا شئت فذاك عندي خير من هذا الوجود"⁽⁴⁸⁾؛

وادع في خلقك يسجد من رجا
خلدك الأعلى فما نحن سجد
لنكونن إذا صح الحجى
حجراً صلداً ولا هذا الوجود⁽⁴⁹⁾

"ولكن هل زالت غواية الشيطان بعد أن خبت شعلته وتجمد صحرا، كلا، فهيهات أن تتغير الطباع، فالغاوي ما يزال غاويًا، وهو هذه المرة يغوي الناس بالفن الذي قد تحول إليه، فإذا ما صادفت تمثالاً يفتنك بسحره أو إذا رأيت صنماً معبوداً، فاعلم أن ذلك التمثال وهذا الصنم هو هو نفسه الشيطان بعد أن تحول حجراً، فتعجب ما شاء لك التعجب من كيد هو أخلد من الروح والجسد معاً، فقد تفنى الروح وقد يفنى الجسد، لكن الكيد باقٍ لا يزول"⁽⁵⁰⁾.

46- انظر: غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، 1983م، ص 313 - 316.

47- ديوان العقاد أشباح الأصيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ص 272 - 289.

48- زكي نجيب محمود، مع الشعراء، دار الشروق، ص 32 - 33.

49- وقد شاعت هذه الدلالة للشيطان في الكثير من قصائد شعرائنا المعاصرين؛ "أمل دنقل" يعتبره في "كلمات سبارتاكوس الأخيرة" رمزاً للتمرد الحر الذي دفع في سبيل حريته أفدح الثمن، و"محمد أحمد العزب" في قصيدته "تجديف" يجعله رمزاً للقوة وللقدرة على ارتياد المجهول. انظر: علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1417هـ/ 1997م، ص 97-102.

50- زكي نجيب، مع الشعراء، ص 32-33.

نهاية قصيدة العقاد تشير إلى أن شيطانه ليس إبليس - كبير الشياطين - وإنما هو جند من جنوده وقد غضب عليه إبليس وأنكر أن يكون واحداً من أسرتهم إذ متى "كان الشيطان من الحماقة بحيث أن يقع في شرك ينصبه له الله؟ فمن أين أتى هذا المسخ الذي لا هو من الأملاك الخالص ولا هو من الشياطين الخالص؟ لعل شيطانة أغوت ملكا ذات مرة، فأنسلا هذا الشيطان، فجاء هجيناً من أملاك وشياطين وإلا فكيف بلغ به الطيش أن يقول الحق صريحا؟ فباء صاحبنا بالسخط فلا شيعته رضيت عن مسلكه ولا رضي عنه الأعداء.. وتلك هي نهاية النوابع دائما: يهتفون بالحق، فيتنكر لهم أصحاب الغي وأصحاب الرشاد جميعاً"⁽⁵¹⁾. والخاتمة⁽⁵²⁾ تضغط على استفهام مفاده؛ هل الشيطان هو العقاد نفسه؟!

ملامح الشيطان عند العقاد هي نفسها تلك الملامح عند الرومي وملتون والمتصوفة إذ أرسل لبيذر للشرب بدوره، وقد تلبس عند الرومي أمراً ظاهره خير - إيقاظ معاوية للصلاة - سبيلا لبث شره - حرمان معاوية من الأجر الكثير -، وعند العقاد ستر خبثه بسلاح فريد ابتكره سماه "الحق" واتخذ سبيلا للغواية، في حين أن شيطان ملتون كان يغوي بالباطل!

وكذلك ظل شيطان العقاد على غرار شيطان الرومي معتزاً بشخصية الشيطان مفتخراً بما صنع لكنه استطاع أن يبتكر في المكر ويظهر الكفر بالشر فيرفع إلى الجنة ثواباً له على كفره بالشر وظل هو المنتصر حتى النهاية، فقد بقي يغوي الناس وهو حجر!

شيطان العقاد مثل شيطان الرومي فضل أن يطيع أمر القضاء - الجبر - ليلعب دور الشيطان اللعين الرجيم طاعة لله... وهو بطل القصة عند الرومي وملتون والعقاد!...

ومهما يكن من أمر فسيبقى دور الشيطان في قصة الخليفة مثيراً سواء من خلال الفردوس المفقود أو قصيدة الرومي أو ترجمة الشيطان، أو غيرها من القصائد في الأدب الإنساني، وسيجد دائماً من ينفر منه على أساس محتواه العقائدي، كما سيجد دائماً القراء الذين ينشدون فيه ذلك الطموح الضخم الذي يتمثل في تصور هذا الصراع - صراع الخير والشر -، ذلك لأنه يعالج مشكلة الإنسان بصورة عامة، ويستطيع القارئ - مهما كان معتقده - أن يمضي مع الأديب في بحثه عن مشكلات الإنسان، وموقفه بين الخير والشر، وصراعه المحتوم مع الشر، سعياً إلى تحقيق الكمال الإنساني. كما سيهتم به الباحثون في الأدب

51 - المصدر السابق، ص 33.

52 - وكذا العهد بمشبوب القل عارم الفطنة جياش الفؤاد

أبدا يهتف بالقول فلا يعجب الغي ولا يرضي الرشاد

المقارن كلما أرادوا تتبع تقاليد الآداب الكلاسيكية القديمة والحديثة وأثرها على تطور فنون الأدب.. وهذا هو ما جعلني أتتبع سيرة الشيطان في قصة الخليفة عند بعض أبرز الأسماء انطلاقاً من الرؤية التاريخية التي أثبتتها القرآن الكريم للقصة.

ما عدا تلك الصور فقد ظلت أصداء قصة الخليفة حية طول الخط في الأجزاء الستة من ديوان مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين الرومي باستدعاءات شخصياتها كلما اقتضى الأمر. فقد وردت كلمة "آدم" مائة وخمسة وعشرين مرة في المثنوي؛ منها ثلاث وثمانين مرة كانت ترجمانا للقصة القرآنية. و دخل "الشيطان" المثنوي بصيغة "إبليس" في ستة وأربعين موضعاً؛ خمس وعشرون منها استدعاءات للشخصية من خلال القصة القرآنية، وبصيغة "بليس" في خمس وعشرين مرة، منها عشر مرات تترجم أصداء القصة القرآنية على المثنوي. وباسم "شيطان" نجده في خمس وأربعين موضعاً كذلك، يترجم اثنان منها أصداء القصة القرآنية. وأما الشخصيات الثانوية فنجد أم البشرية حواء في أربعة مواضع، وهابيل في موضعين فقط، وقابيل في خمسة مواضع.
